الترياق

خليفة بديار / الجزائر

حكايتي تشبه لحد كبير مأساة حنبل التي أبيدت عائلته على بكرة أبيها.لكنه عكسي تمامًا اتخذ موقفًا،وراح يحصد أرواح من غدروا به ،و أفجعوه.

جئت لبيته لعلي أكتسب الشجاعة، وأعود إلى بلدتي منتقمًا ممن شردني،وأطفيء ناري المتأججة؛ لذا قررت السفر، والعيش بهذا المنزل؛فليس عندي ما أخسره،خصوصًا بعدما فقدت أعز ما أملك،فأنا اليوم بين مطرقة الذل، وسندان الخوف.

و لعلي ألملم جروحي بعد أن أصبحت كقشة أنهكها التقاذف، فإن بقيت بقريتي فسأعيش ذليلًا منبوذًا،ومن سرق سعادتي حر طليق.

بيت يقع في غابة موحشة كثيفة الأحراش، تحجبه أجمة فارعة الطول، يتوسط فناءه حديقة، لا تسمح لأشعة الشمس بانسلال، تلفه روائح، تعجز تمييز رائحة الرطوبة من رائحة بقايا الجيف المتفشية التي تكاد تخنقك.

لن تتراءى لك ملامح البيت واضحة من كثرة الحشائش التي طوقت جدرانه وسطوحه التي تغير لون قرميدها بفعل الطحالب.

بيت يوحي لك للوهلة الأولى بأنه لن يرتب نظرًا للوحه المتآكل، ومجاري مياه الأسقف الصدئة،نوافذه مكسور زجاجها بفعل الطيور التي أخطأت طريقها، ليبقى هيكلها العظمي شاهدا على مرورها.

بحركة واحدة كسرت الباب، وولجت للداخل، ورحت أجوب البيت وسط العتمة، وأعشاش العناكب تعرقل تقدمي، بل حتى كثبان التراب المتجمعة هنا وهناك أخدت تعترض خطواتي.

تطلب مني جهدًا عظيمًا حتى أعدت تأهيله، وجعلته أهلًا للسكن؛ لأبدأ حياتي الجديدة مع هذا السكون.

لم أر أو أسمع شيئًا منذ أن وطئت قدماي هذا البيت .

تمر الأيام والصمت يلف حياتي الجديدة حتى كدت أنسى ما جئت إليه.

و كما جرت العادة، وبعد يوم من العمل الشاق المتواصل، وفي هدوء الليل وسكونه، توجهت نحو فراشي لأختلي بنفسي. وكم كنت أتوق لهذه اللحظة التي أطلق فيها العنان لمخيلتي، وأروح أرسم أحلامًا يصعب تحقيقها على أرض الواقع .

لحظة دائمًا أسترد فيها أنفاسي المثقلة بالأحزان.

ألقيت بجسدي المنهك على سريري...فجأة أحسست بحركة، إلا أنني لم أكثرت، واعتبرت هذا مجرد هلوسة.

عادت الحركة مرة أخرى لأحس وأسمع أشياء غريبة تحوم حولي.

تجمدت في مكاني، ورحت أنصت بأذني المنتصبتين، وأحدق بعينيَّ الجاحظتين؛ لعلي أقتنص حقيقة ما يدور حولي، لكن هيهات.

ليلة ليست ككل الليالي؛فالضوء المندلق من المصابيح أصبح أسود باهتًا بدل أن يضيء العتمة يتراقص تارة،ويدنو من رأسي تارة أخرى.

لم أستطع الهروب، بل حتى النهوض، فرحت أدفن رأسي في الوسادة لعلي...

ما زاد الطين بله عواء الذئاب، و نهام البوم.

شعرت برعب رهيب يكاد يكتم أنفاسي، وبدأت أصرخ بأعلى صوت، لكن صرختي لم تتجاوز حدود حلقي، حاولت النهوض والهروب مرة أخرى، لكن دون جدوى.

فالأصوات والصخب بدأ يزيد ويقوى..صوت تدحرج القوارير الفارغة وظلال تهدل أغصان تلك الأجمة يكاد يخترق طبلة أذني..

صرير الباب، ووقع الأقدام كان يتحرك نحوي.

رحت أردد في نفسي: ليتني لم آت ..وليتني أجد طوق النجاة...

فجسدي النحيف ما عاد يقوى على الصبر، فلا حول له ولا قوة.

فجأة انطلق المنبه بصوته الصاخب برغم أنني لم أسمعه مرة حتى ظننت أنه عاطل.

كأن الأشياء من حولي تآمرت وتضامنت فيما بينها.. أنفاسي تكتمت،خصوصًا حينما رأيت شيئًا يزحف من تحت الباب نحوي، كأنه شعر،بأظافر طويلة متعفنة.

مر الليل المتقلب ثقيلًا، والرعب يصدع جدران البيت بأشباحه الضالة التي ظلت تطل بوجهها الشاحب الذي حجبه الظلام.

لتزيد الرعشة اجتياح جسمي،شيء يراقبني من الوراء، لكنني لا أجرؤ على الالتفات، ثمة شيء يحمل سكينًا أو شيئًا حادًّا.

لمحته في المرآة المقابلة المكسرة، مما تسبب في عدم اتضاح الصورة.

رائحة جسده المتعفن تكاد تكتم أنفاسي.

وضـع يده الغير المكتسـية باللحم الملطخة بدماء. على عينيَّ المتورمتين خوفًا؛ فالمسـألة مسـألة وقت و أكون بالمشرحة.

لينادي مناد فجأة وسط تلك الصرخات توقف عن التخبط... توقف أيها الأبله لقد ربحت

الامتحان.

تستحق ترياق الشجاعة، سأدلك عن مكانه. أجل إنه شبح حنبل هو من قام بإخافتي محاولًا اختباري إن كنت أهلا لأمنح ترياق الشـجاعة، مع أنني كنت أرى عكس ما تفوه به إلا أنه سـوَّغه بأن وجودي داخل هذا المكان الموحش بحد ذاته يعتبر شجاعة.

لتغمرني فجأة السعادة بعد شهادة أعظم شخصية تربعت على هرم الإجرام.حقيقة أقنعني، وما عدت أشك ولو ذرة شك.

ليخبرني مباشرة مكان وجود ذلك الترياق ويختفي.

توقف ذلك الصخب، وعاد ضوء النور، وتوهج من جديد، كأن شيئًا لم يحدث.

تمددت في فراشي كي ألتقط أنفاسي، وبدأت أغيب في النوم شاعرًا بالراحة والطمأنينة.

في اليوم الموالي استيقظت على وقع زقزقة العصافير، و نفحات نسيم الصباح المنعش. مباشرة توجهت صوب الترياق، لم أتوان لحظة عن شربه بعد أن وقع نظري عليه، لتنسل من جسدي رعشة الخوف، ويدب مكانها شيء سرعان ما عرفته.

أجل هي الشجاعة...كيف لا وقلبي بدأ يفيض قوة؟...و يداي هجرتهما الرعشة...

و من دون إضاعة للوقت حزمت حقائبي وقررت العودة لوطني...